

الرؤساء ، وأدلهما على أصالة النبل في نفوسهم ، واستحواذ الكرم  
والفضيلة على طباعهم .

ومن البواعث على التحلم أيضاً ما يكون من الاسهانة بالسيء  
أو استضعاف شأه ، حتى لكأنه المعنى بمثل قول « مسلم » :  
فأذهب فأت طليقاً عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل  
وبمثل قول الآخر :

نجابك عرضك منجى الذباب (م) حثته مقاديرُهُ أن يُنالا !  
واقعد عفا مصعب بن الزبير — لئلا هذا الباعث — عن  
قاتل أبيه (١) . فقد روى أنه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء  
الجند ، وأمر مناديه فنادى : أين عمرو بن جرموز ؟ — وهو  
الذي قتل أباه الزبير — فقيل له : أيها الأمير ، إنه قد تباعد في  
الأرض . فقال : أويظن الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله ؟ فليظهر  
أمناً ليأخذ عطاءه موقوراً ... !

وقال عمر بن الخطاب لأبي مرهم البلوي قاتل أخيه زيد بن  
الخطاب — وكان قد كتمه عنه دينه وورعه وعدالته — :  
والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! قال : أقيم معنى ذلك  
حقاً ؟ قال : لا . قال : فلا خير ، إنما بأسى على الحب النساء !  
ولقد يدعو إلى التحلم فرط السامة من الانتقام ، ورغبة  
النفس عن التشقى لطول ما بلغت من ذلك حظها ، والشيء إذا  
زاد عن حده مال إلى ضده ، وللنفوس ثورة تجنح معها إلى  
السكون ، ومواخذة تميل بعدها إلى التاركة ، ويبدو ذلك المظهر  
واضحاً فيما يسجله التاريخ من عفو المنصور بعد حروبه مع البلويين ،  
وتسامح المأمون بعد حوادث الفتنة بينه وبين أخيه الأمين . ولما  
انتهت فتنة ابن الأشعث أتى عبد الملك بن مروان بأسارى موقعة  
دير الجماجم (٢) ؛ — وكانوا ممن خان عهده ونقضوا بيعته وقاتلوا  
جندهم قتالاً عنيفاً — فقال لرجاء بن حيوة : ما ترى ؟ قال : إن

(١) اشترك الزبير في موقعة الجمل كما هو معلوم ، ثم اتسع بخصه في  
مخاصمة علي بن أبي طالب من الأمر وقتل راجعاً إلى المدينة — عام ٣٦ هـ —  
فما كان بوادي السباع نزل فقام ، فجاء عمرو بن جرموز فقتله  
(٢) حدثت قرب الكوفة عام ٨٣ هـ وفر بعدها عبد الرحمن ابن  
الأشعث إلى فارس فأواه إليه رتبيل ملك الترك ، وكانه المجاج وتوعد  
لأن لم يرسل إليه ابن الأشعث فقتل عبد الرحمن نفسه بأن تردى من أعلى  
القصر ، وحمل رأسه إلى المجاج عام ٨٥ هـ .

## الحلم والتحمل . . .

للأستاذ محمود عزت عرفة

— ٤ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتعلم ، ومن يتخير الخير  
يطعه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

### دواعي إلى التحلم :

تدعو إلى التحلم عوارض كثيرة ، وأمور متعددة ، لأن  
التكلف كيفما كان خروج على الطبيعة ، ونحويل للفرية ؛ وثىء  
من ذلك لا يكون أبداً وحده ، ولا يتم مجرداً عن العلل خارجاً  
على البواعث والأسباب .

فما يدعو النفس إلى التحلم ويطوره لها أن تستمر القدرة على  
الانتصار فيفتأ ذلك من حر غضبها ، ويبدلها بقلها هدوءاً ،  
وبجزعها تثبناً واطمئناناً . وحينئذ تنقضي بواعث الانتقام ، فيكون  
التحلم الذي يتناول مع الزمن حتى يصير حلماً ، وأكثر ما يكون  
عفو الملوكة لئلا هذا الباعث ، وقد مررت بنا أمثلة منه مختلفات .  
ويكاد يضع يدنا على هذه الحقيقة وضماً قول المنصور لجمع  
الصادق بعد عفو عن أهل المدينة : إنك لتعلم أن قدرتي عليهم  
تعمنى من الإساءة إليهم (١) .

ومن كلام بعض الحكماء : ليس الخليم من ظلم فحلم ، حتى  
إذا قدر انتقم ؛ ولكن الخليم من ظلم فحلم ؛ حتى إذا قدر عفا .  
ويقول عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند  
غضبه ، وأمانته عند طمعه . وما عليك بحلمه إذا لم يقضب ؟  
وما عليك بأمانته إذا لم يطمع ؟

وقد نصح مساوية لابنه يزيد فقال : عليك بالحلم والاحتمال  
حتى تتمكنك الفرصة ؛ فإن أمكنتك فمليك بالصفح ، فإنه يدفع  
منك معضلات الأمور ، ويوقيك مصارع المهدور ... ولعل  
هذا الخلق الكريم — العفو عند القدرة — يعد أشرف مواقف

(١) انظر الحوار بتمامه في الحلقة الثانية من هذا البحث .

بالمقوية ، وهذا باعث كريم على التحمل لا يتساقى إليه من النفوس إلا أكرمها عنصراً وأزكاها جوهرأ .

ولقد عوتب كسرى أنوشروان مرة على ترك عقوبة المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا لم ندأومهم بالمغو فن لهم ؟ وقال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه ! قال النزالي : « وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمصيبة الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . »  
— وحكي الفضيل بن عياض قال : ما رأيت أزهدهم من رجل من أهل خراسان ، جلس إلى في المسجد الحرام ثم قام ليطوف ، فسرت دنائير كانت معه . فجعل يبكي . فقلت : أعلى الدنائير تبكي ؟ فقال لا ، ولكن مثلتي وإياه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف عقلي على إدحاض حجته ، فبكت رحمة له !

وقد يحملون — في غير موضع الحلم — تجانفاً عن شبهة قد تعرض في القصاص وإن كان عدلاً ، والتماساً لمرتبة من الخلق أسنى من هذا العدل ، وأبعد مما يتلبس به من تلك الشبهة . قال — عمر بن عبد العزيز لرجل غلط غلطاً اشتد له غضبه : لولا أنك أغضبتني لما قبضت . وإنه في هذا ليأتسى بيده ابن الخطاب ، وقد أشرنا — فيما سبق — إلى كفه عن السكران الذي شتمه ، وقوله : إنه أغضبني ، ولو عززته لكان ذلك لنفسه لنفسى ...

وربما يكون التحمل وسيلة لتحقيق غاية بعيدة ، خفية أو ظاهرة ؛ من تطيب نفس ، أو رب صنيعة ، أو إتمام سالف جميل ، أو مراعاة قديم حرمة ، أو تمهيد لاستماعة وتكليف ؛ وكان أصحاب الجنائيات من الولاة والوزراء والمال يدركون هذا الباعث ، ويعملون على إثارة في نفوس الخلقاء إذا هم تعرضوا لسخطهم وصاروا موضع تقمهم .

ولي معاوية روح من زبناح ثم عتب عليه في جناية فكتب إليه بالقدوم . ولما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم مني ركناً أنت بينته ، أو أن تضع مني خسيمة أنت رفعتها ، أو تشمت بي عدواً أنت وقتته . وأسألك بالله إلا آتى حملك وعفوك دون إفساد صنائحك . فقال معاوية : إذا الله سئى عقد أمر تيسر ... خلوا سييله .

ومن العفو مثل هذا الباعث عفو الأمين عن الحسين بن علي

الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظنر ، فاعط الله ما يحب من العفو . فلم يكن بأسرع من أن فك قيودهم وعفا عنهم .

ونحن لا نكاد نفهم عفواً يصدر عن الحجاج — أضلاً ولاة المسلمين إلى الدماء — إلا على هذا الوجه ، ولثل ذلك الباعث . فهو قد أبلى في قتال ابن الأشعث أعظم البلاء ، وذاق أمام قواته مرارة المزيمة وحلاوة الانتصار ، حتى فهره في موقعة دير الجلمج فلما عرض الأسرى من رجاله على السيف مثل أمامه الشعبي<sup>(١)</sup> في جملتهم . فقال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ، وأجذب الجنب ، واستحللنا نفوسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وضاق المسلك ، وخبطتنا فتنة لم تكن فيها بررة أفتياء ، ولا نجرة أقوياء . قال الحجاج : صدقت ، والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قوتهم ... خلوا سبيل الشيخ !

وكان قوم يتحملون على السفهاء إذا اعترضوهم بالأذى ، بل ربما تعرضوا إليهم عامدين طلباً لا كتساب الحلم وتدريباً عليه ، وقهوراً للنفس على السكون ، وتمويداً لها على المسامحة . روى أن جعفر بن محمد الصادق كان إذا أذنب له عبد أعتقه . فقيل له في ذلك فقال : إني أريد بفعل هذا تعلم الحلم ! ومن كلام الأحنف ابن قيس وكان من أحلم الناس : لست بحليم ولكني أحم<sup>(٢)</sup> ! ويقول أبو عثمان الجاحظ في بيانه وتبيينه : « كانوا يأمرون بالتحلم والتعلم ، وبالتقدم في ذلك أشد التقدم » ، وحجة القائلين بهذا أن تكلف الفضيلة عند فقدتها فضيلة . نعم ، يفرق الصوفية — في المعنى وفي الدرجة — بين حالتى الوجد والتواجد مثلاً ، ولكنهم لا ينكرون المقام الأخير متى قصد به التوصل إلى بلوغ الأول وتحصيله ، والأصل عند الجميع في هذا ما روى عن الرسول عليه الصلوات من قوله : إن لم تبكوا فتبا كوا !

هذا وقد تحمل الشفقة على المسيء والرحمة له إلى مقابلته بالحلم ، إذا ما تقرر في الذهن أن الإساءة لا تعدو أن تكون تصرفاً مريضاً مبعثه الجهل ، وأن صاحبه أولى بالعلاج منه

(١) أبو عمرو عامر بن شراحيل ، كوفي تابعي عالم جليل توفى سنة ١٠٠ هـ .

(٢) يشبه هذا قول طلحة بن عبيد الله — وكان من الأجواد — :

لنا نجد بأموالنا ما يجد الإخلاء ، ولكننا نصبر !